العودة إلى العلم

سعيد بن خلفان النعماني

ظهر مُصطلحُ العَودة الى المَدارس خلالَ العقدينِ الماضيينِ كإعلانٍ تجاَري يَحمل معنى الجذب والترويج لشراءِ مستلزماتِ العام الدراسي الجديد، بعد ان اصبح اليومُ الدراسي الاول حدثا استثنائيا يجب الظهورُ فيه بأجمل صورة وابهىَ حُلة، تتفنن المحلات التجارية في عرض هذه المستلزمات بدءا من الاحذية والملابس وحتى الدفاتر والاقلام والحقائب ذات العلامة التجارية او الرسوم وصور نجوم الافلام والمسلسلات الكرتونية.

ذكريات كثيرة استدعيها من ذاكرتي وعودتي الى المدرسة في سبعينيات القرن الماضي ومدلول العام الدراسي كما فهمناه، الاختيارات – وقتها – محدودة للغاية والحقيبة نفسها تراوح مكانها وترافق الطالب لاكثر من سنةٍ دراسيةٍ دون ملل .

****

خيمةُ السعف الوحيدة وعريشها المستطيل كانت كل البيت الذي نأوي فيه بعد عودتنا اليومية من المدرسة، لم تك ثمة غرفة للمذاكرة وأخرى للنوم وصالة الضيوف وغيرها من تقسيمات البيوت الحديثة، وهكذا كان وضع القرية بأكملها، وحتى يميز صاحبنا نفسه ومكان مذاكرته وقراءته ابتكر طريقة جميلة بأن صنع غرفة خشبية في أعلى شجرة الصبار (التمر هندي) المعمرة التي تقف شامخة ضليلة منذ زمن بعيد، فكان يأوي اليها باستمرار فاصبحت مجلسه ومكتبته الخاصة ولم يسمح لأحد باكتشاف عالمه الطفولي الذي لم تتساقط اخشابه حتى عهدٍ قريب.

وعندما بدأت البيوت الاسمنية في الظهور كان الكل في عجب، وعدد الاطفال ربما يزيد على عدد العاملين في موقع البناء، حينها كانت كاميرات الهاتف في عدم، لو توفرت وقتها لرصدت لنا الكثير من وقع الحياة وسجلت لنا مشاهد لم تكن مستغربة.

****

كانت المدرسة على فترتين صباحية ومسائية، وبدأنا في الفترة المسائية في سني الدراسة الاولى، حيث كانت الفترة الصباحية للإناث ، كانت الطريق شاقة الى حيث تأتي الحافلات، ومن تيسرت لي دراجة هوائية كان في قمة السعادة وكأنه ملك الدنيا، يقترب عَمْدا من الطلاب المتجمعين على الشارع الترابي الذي وصل غباره الى السماء، فرحا مسرورا ليريهم دراجته وألوانها الزاهية وحقيبته التي جعل لها سلّة صغيرة في اخر الدراجة، فكان المشهد طفوليا بكل تفاصيله، ولا تتوقف الاعين عن متابعة تلك الدراجة وراكبها المزهو بنفسه، إلا عندما يقطع شرودهم بوق الحافلة المزعج ودوائر الغبار المتراكمة التي تسبق الحافلة كأنها أطباق طائرة تعلو القرية وتهز جريد النخيل التي تلحق بها، ليبدأ مشهد آخر من المعاناة والتكدس فيها حتى الوصول الى المدرسة.

****

لم تكن العودة الى المدارس بعد الإجازة الطويلة حفلا أو يوما مشهودا ننتقي فيه الوان دفاترنا وسمك اوراقها، ونوع الحقائب والعلامة التجارية التي تحملها، كان يوما عاديا للغاية، فدفاتر العام الماضي مازالت موجودة، بل كان أكثر المعلمين يمنعون الطلاب من التخلص من الدفاتر القديمة ويحضون على الاحتفاظ بها، باعتبارها الطريق الى الدروس المقبلة للعام الجديد، بل يفاجيء المعلمُ طلابَه بأسئلة تتعلق بمنهج العام الفائت، ليرى مدى فهم الطلاب واستيعابهم للدروس، لاسيما اللغة العربية والرياضيات.

عدد من المعلمين لاتزال اسماؤهم وصورهم عالقة في الذهن، ربما لشدة بعضهم وقسوتهم في التعامل مع الطلاب أو لمرحهم الزائد، ولكن في كل الاحوال كانت المحصلة واحدة.

****

يضع محمد بن مَديهْ (التاجر) دشاديشَ العودة إلى المدارس في سلة بلاستيكية كبيرة، تختلط بعناية تامة بعد كل عملية بحث يقوم بها الاطفال، لم تكن تفصيلا أو مكوية ومغلفة في أكياسِ البلاستيك المقوى، كان عدد الخياطين الذين يفصلون ملابس العيد قليلا جدا، فدشداشة العيد هي نفسها التي تحفظ بالمندوس حتى المدرسة وتستمر لأكثر من عام، حتى وان تغيرت المقاسات فانها ستظل الباقية وربما تتدخل الأم لتفك الاطراف السفلية للدشداشة بمهارة فائقة لتناسب طول الابن الذي لم تكفه دشداشته.

دكانه على يمين برج الدروازة الغربي مباشرة ويبيع فيه كل شيء تقريبا، والأرفف محملة بانواع مختلفة من البضائع خصوصا الكماليات المنزلية، وكان علينا البحث في تلك السلة عما يناسب طولنا، لأن عرض جميع الدشاديش متساوٍ تقريبا، أما الكمّة فكانت نجوما تخيطها الأم ربما لعام كامل، وإن تعذرت، فليس إلا القبعة المنخلة وبعضها الملونة تشبه إلى حد كبير الكمة التي يلبسها سكان إفريقيا بالوانها: الأحمر والأسود والأزرق.

****

في ركن بعيد من الدروازة الطويلة نمضي لشراء الدفاتر ذات الجلد الملون التي تقسم حسب المواد الدراسية.. وعندما زرتُ الهند لأول مرة في العام ٢٠٠٦ وجدت تلك الدفاتر المدرسية نفسها تستعمل حتى الآن، ليس في المدارس فحسب ولكني وجدتها في المتاجر والمستشفيات والفنادق تخطط بالمسطرة لكتابة يوميات المبيعات أو سجل الزوار.

كانت تلك الدفاتر مميزة بورقها الخفيف الأشبه بورق الصحف والخطوط الرفيعة أيضا، أما الأقلام فكانت الجافة ذات اللونين الأزرق والأسود، ومنع الطلاب وقتها من الكتابة باللون الأحمر باعتباره قلم التصحيح الذي لا يستخدمه سوى المعلم أو مدير المدرسة .

****

نمضي وقتا غير طويل لتجهيز مستلزمات عودتنا للمدرسة، فكانت الحقيبة ملأى بالكتب والدفاتر وشيء من الأقلام الجافة والرصاص ذات الخمسين بيسة، قيمة كل ذلك لا تصل إلى ثلاثة ريالات ماعدا الدشداشة التي تصل قيمتها

إلى ذلك، أما أحمد بن مديه فكان يبيعها بريالين ونصف مراعاة لزبائنه الدائمين.

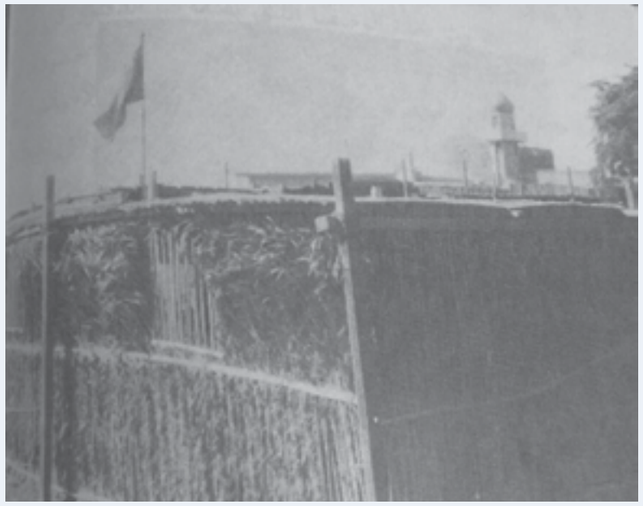

معلم اللغة العربية هو مربي الصف ويتوجب علينا حل قائمة طويلة من الواجبات المدرسية، ولأنه كان يكتشف مهارات طلابه بكل عناية كان يعفيني من بعض الواجبات عندما رآني أهتم بقراءة القصص التي يوزعها علينا بين حين وآخر حفزا لنا للعلم والقراءة.

****

الطريق من بيتنا إلى المدرسة تمضي وسط غابة من النخيل الخضراء بمختلف أطوالها وثمارها، دروب ملتوية بين الأموال، كانت أجملها طوي عبدين، فقد التفت النخيل على جوانب مزرعته ليجعل القت والمسيبلو في وسط المزرعة، كانت بالفعل إبداعا، وفي يوم عرفة من كل عام يدعو الجميع لوليمة الصدقة فيفرش خطاً من البُسط والدعون، فكانت فرصتنا ونحن صغار التجول بين حقله الجميل وربما نقتلع رؤوس الفجل بكل أريحية تحت نظره وأولاده، فقد سمح للجميع أخذ أي شيء يريدونه.. كان كريما وأولاده في غاية اللطف، بل كان العرف وقتها بأن الفجل مسموح باقتلاعه من أي مزرعة لاسيما وقت الغداء، وكان الناس يحرصون على زراعته في دكوك القت لهذا الغض.

****

أمر على مزرعة عبدين غدوةً ورواحا، وفي كل مرة أتمنى أن تكون لنا مزرعة مثلها، مزرعتنا جزء بسيط من إرث جدي لا يتجاوز ثلاثة عواضد، والبقية لأعمامي وأولادهم، أما مزرعة عبدين فكانت شيئا آخر.

ومضت الأيام وينتقل عبدين إلى رحمة الله تعالى، وما تزال طريقي إلى المدرسة نفسها، ولكن طوي عبدين لم تكن كما عهدتها، غادرها الجميع بعد وفاة الأب والجد عبدين وتتهاوى النخيل الطوال وتجف سواقي جلب القت وتهجر بعد عمران وتموت بعد حياة، وتصبح عَصْفاً مَأكولاً، وتدور الايامُ فأشتري طوي عبدين بكاملها فأبني بيتا وانشيء حديقة صغيرة تحيط به، ويبني أولادي فيما تبقى منها.

****

مرحلة أخرى كانت في العام ١٩٨٢ حيث أنهيت المرحلة الاعدادية، ولأن الثانوية العامة لم تكن متاحة وقتها للجميع بسبب معدل الدرجات، كما هو الحال الآن عند دخول الجامعات والكليات، فكان حريا أن يبحث زملائي عن فرصة دراسية خارج الولاية فهناك الثانوية الصناعية بصحار والتجارية بالسيب والزراعية بنزوى، فقرر كثير من زملاء الدراسة التسجيل في الثانوية التجارية بسبب الاغراءات الكثيرة في تلك الفترة بأن خريجي هذه المدرسة لهم الأولية في التوظيف، فما كان مني الا ان تبعتهم لنفس الحجة مع أن درجاتي مرتفعة ويحق لي استكمال الثانوية العامة

أنهيت الثانوية التجارية في عام ١٩٨٦، ومنح جميع الخريجين في ذلك العام فرصة مواصلة دراستهم الجامعية ببريطانيا، ولظروف أسرية لم ألحق الركب فأتيحت لي الدراسة بكلية عمان الفنية الصناعية ذلك لأن الكلية منحت خريجي الثانوية التجارية خمسة مقاعد تقريبا وهي للاوائل فقط، ولأن الجميع حزم حقائبه إلى بريطانيا حصلت على تلك الفرصة، فعدت إلى التعليم مرة اخرى ولم ألتفت إلى الفرص الوظيفية الكثيرة المتاحة انذاك لخريجي الثانوية التجارية سواء بالقطاع الحكومي او الخاص.

****

في العام ١٩٨٩ انهيت الدراسة بكلية عمان الفنية الصناعية، وكانت الوظائف تبحث عن من يشغلها، قائمة الفرص طويلة، وتأتي الظروف مرة أخرى لتقرر مكان العمل، فعُينت بوزارة الزراعة والثروة السمكية، ولم أسمح لدورة العمل أن تنسيني أيام الدراسة ومتعة التعليم، فالتحقت خلال الاعوام الأولى من الوظيفة بجامعة بيروت العربية فحصلت على شهادة البكالريوس في التجارة والاقتصاد العام ١٩٩٨، واتوقف بعدها زمنا طويلة عن مواصلة الدراسات العليا لانخراطي بعد الدوام الرسمي في العمل الاعلامي، ولكن هاجس العودة الى العلم ومقاعد الدراسة ظل يلازمني زمنا، ثم حانت الفرصة لاكتشاف مجال علمي اساسي في الحياة وهو العلوم الشرعية، التي نجهل منها أكثر مما نعرفه، فالتحقت بكلية العلوم الشرعية لألج عالما عجيبا من فنون الدراسة التي لم أتوقعها لاسيما علوم اللغة العربية والنحو والصرف والمنطق، فكانت هذه الدراسة هي ضالتي التي ابحث عنها، فاللغة العربية أهم أدوات الكاتب والنحو اساسها، وها أنا بعد أسابيع قليلة انتقل الى السنة الرابعة والاخيرة في هذا العلم.

MAZOON
PRINTING, PUBLISHING & ADVERTISING (L.L.C.)
مزون
للطباعة والنشر والاعلان (ش.م.م)

ص.ب ١٧٨، الرمز البريدي ١١٤ مطرح ، سلطنة عُمان
تليفون : ٢٤٨١٧٠٠٤ (٩٦٨) فاكس : ٢٤٨١٦٨٨٨ (٩٦٨)
www.mazoonprinting.com